الحظ

أقصوصة مصرية

بقلم الأديب نجيب محفوظ

بدا على وجه محمد أفندى الحلو النهيؤ للتوثب والمغامرة فدس يده فى جيبه وأخرج ريالاً ثم دخل بأقدام ثابتة إلى مكتب جمعية المواساة وتردد لحظة بقلب ناظريه في أوراق النصيب المكدسة ونفسه حيرى وقلبه خافق لا يدرى ما ينبغى أن يأخذ وما ينبغي أن يدع ، وكأنه آثر أن يلقى عن عاتق اختياره التبعة فطلب من موظف المكتب — وهو ينقده الريال — ان يختار له ورقة

واليانصيب مغامرة خفيفة تجذب الناس على اختلاف طبقاتهم ، فيشارك فيه بعض الأغنياء للتلهية ومدافعة الملل وإيقاظ العواطف التى ران عليها الشبع والسقم ، ويساهم فيه آخرون منهم طلباً للمزيد وإشباعاً لغريزة التملك التى لا تعرف الشبع ؛ أما أغلبية مريديه فمن الفقراء الحالمين الذين يرون في ورقته « باسبورت » ينقلهم إلى عالم عماده المصارف وشعاره الترف وآياته زينات الدنيا من النساء والمشاهد والاسفار والمآكل والمشارب . ومن اطلع على وجه محمد أفندى وهو يدفن ورقة اليانصيب فى محفظته فرأى عينيه الحالمتين وسمع تنهدته الحارة وهو يدعو قائلاً : يارب : — لايشك فى أنه من هذه الجماعة الأخيرة التى أوقعها الحرمان فى الحسرة وردتها الحسرة إلى الحرمان

يتحدر هذا الشاب من أسرة ريفية فقيرة عميدها مزارع بسيط ، فكان منتهى حظه من التعليم شهادة الكفاءة ، وقد حسب أبوه نفسه من المجاهدين الصابرين أن بلغ به هذه المرتبة من التعلم ، فسعى إلى توظيفه بيضعة جنيهات ، وكان فرحه بذلك عظيما ، كما كان ألم الشاب بليغاً ؛ أما الأب فقد فاخر أهل قريته بابنه « الميري » وغبط نفسه على الجنيه الذى أجراه الشاب عليه ، وأما الشاب فكان مجتهداً طموحاً شديد الحساسية ، يطمع فى المراكز العالية ويتحرق على نعيم الدنيا الذى يرى آثاره المغرية فى السيارات المارقة والعمارات الشاهقة والليالي الساهرة . فسخط وحقد وحمل الدهر والناس ونظام الكون ما يعانى من شدة وبؤس وحرمان وفقر . وإن حق لأبيه أن يباهي به العالمين وهو قابع فى قريته فقد كان يزوي خجلاً من تفاهته وهو يسير فى القاهرة الصاخبة كنملة على وريقة شجرة باسقة فى غابة شجراء تأوى إليها الأسود والأفيال . يعمل من الصباح إلى المساء يغادر المصلحة مضمحل القوى خائر العزيمة ، مهين النفس ، قذر الجسم ، فيرتمى على فراشه آسفاً قانطاً وهو يتمنى على الله ألا يطلع عليه الصباح إلا وهو فى قبر يريحه من العالم وتعبه وضآلة أمله فيه

ولم تكن هـذه أول مرة يشترى فيها ورقة اليانصيب ، فكم من مرة اشترى وكم من مرات خسر ، وكم ذهب ينير وجهه الأمل وآب تلتوى شفتاه من اليأس ، وكم نام تسعده أحلام الأمانى وسحا على حسرة وخيبة ، وكانت أهون الخسائر المادية مما يدفعه ثمناً للورقة غير هينة على مثله بل كبيرة فادحة ، ولـكنه لم ينثن له عزم ولم تفتر له همّة ولم يول عنه أمل

وذهب كعادته إلى مسكنه أو بالأحرى إلى حجرته ووضع الورقة فى ظرف ووضع الظرف تحت رزمة من الظروف والخطابات ، ثم قيد رقم الورقة فى مذكرته وانتظر على اللذة الوحيدة التى تجدها نفسه لذة أحلام الأمانى . وبعد أيام فوجىء بمقدم أبيه وقد أوجس قلبه خيفة أن يكون مجيئه لحاجة ، وكان صفر اليدين الا من الضرورى ولـكن الرجل بادره قائلاً وهو لايتمالك عواطفه :

— أبشر ... لقد ابتسم لك الحظ على يدى ...

— كيف ... ؟

— فالهما بغير توقع عظيم للفرح لأنه يعلم أن والده يحسب ماهو غارق فيه من بؤس نعيما وسؤددا يغبط عليهما . واستمر الرجل قائلا : —

— أتعرف أسرة الحمار ... ؟

— طبعاً أذكرهم فقد نشأت مع أحد أبنائهم عبد الحفيظ وطويت فى صحبته عهد الصبا

— أحسنت فهو من أعنى ... لأنه تقدم فى الأسبوع الفائت إلى عمك طالباً يد ابنته ولعلك لاتعلم أن أسرة الحمار هوت إلى دمار الإفلاس والبوار

— سمعت شيئاً من هذا ؟

— إن ماسمعت لهو دون الحقيقة بكثير ، فلم يبق لهم من متاع الدنيا سوى الاسم القديم ، وهم يطمعون فى أن يشتروا به أموال عمك الطائلة ؛ وكاد عمك يلين لهم لولا أن انبريت له غاضباً وقلت له : خذ حذرك من هؤلاء الطغاة الماكرين واذكر أيام كانوا ينظرون إلينا نظرة المؤمن إلى الكافر ، وهمست فى أذنه : إن الأقربين أولى بالمعروف ، وذكرته أن له ابن أخ موظفاً محترماً فعاود فكره ثم قبل ...

— ماذا قبل ..؟

— فقهقه الأب حتى بانت نواجذه الصفر وقال :

— قبل أن يزوجك من ابنته ... ابنة عمك خضرا ، مطمئناً إلى أن يداً غريبة لن تسلبه أمواله ..

وصمت الرجل برهة وهو ينظر إلى ابنه ثم عاد إلى الكلام فقال : —

— الحق أقول ... لقد طمعت فى خضرا منذ زمن بعيد وتمنيت على الله أن يجعلها من قسمتك ونصيبك ولـكنى ترددت كثيراً أن أفاتح أخى فى هذا الموضوع . نعم هو شقيق وقد نشأنا معاً صغيرين يحتوينا الفقر والبؤس ، ولولا الهجرة التى ارتضاها لنفسه والأعمال التى خاضها لبقى فقيراً مثلى ، ولـكنه الآن من كبار أغنياء قريتنا ، فما زلت متردداً خائفاً ، أفكر فى الأمر وأراجع نفسى فيه وأهم وأنكمش وأفرج عن شفتى مجازفاً بالـكلام ثم ألصقهما من الخوف لائذاً بالصمت ، حتى تقدم عبد الحفيظ ففك تقدمه عقدة لسانى فتكلمت وظفرت ... والآن ما عليك إلا أن تسافر معى اليوم أو الغد .

— ولم هذه السرعة ... ؟

— خير البر عاجله ... وإنى أريد أن أقطع الطريق على أبناء الحمار ... ولا تنس أن نبأ خطبتك لابنة عمك ذاع بين أهل القرية ، فيهمنى أن أعجل بعقد الزواج أو يقولون إن عمها قطع خطبتها وولى عنها

— عقد الزواج ... :

— نعم هذا هين ... وأما الدخلة فعلى مهل .. هيا ولا يثنك التقدير فان عمك عليم بحالى وحالك وسنكتب مهراً صوريا فلا تخش شيئاً .

هل يستطيع أن يقول لا فيرفض أفدنة وعمارات وأموالا لايحيط بها الحسبان ؟

أما ابنة عمه فأعوذ بالله من شر ماخلق ... هى كتلة من اللحم المنتفخ ، تضيع فى تهدله قسمات الوجه ومعالم الجسم ، فهى لايعرف لها خصر من ردف من صدر ، جميعها كتلة واحدة كأنما صبت فى برميل نبيذ ، وما يرى من عينيها فشقان ضيقان كأنما يسلط عليهما شعاع شمس لايغيب ، وما يبرز من أنفها فانتفاخة قصيرة كأنها دمل فى إبان الخطر ؛ وهى إلى ذلك ثقيلة الظل ، مظلمة الروح ، شديدة الغباء ؛ وإنه ليذكر أنه داعبها مرة فخاطبها قائلا : « يا أبله خضرا » على طريقة أهل المدن فغابت عنها الدعابة واصفر وجهها وذهبت إلى أمها غاضبة تشكو إليها تهكم ابن عمها وسوء أدبه إذ جعل يخاطبها بما تخاطب به الأخت الكبرى وعبثاً حاول أن يهدئ خاطرها وأن يصرف عنها الموجدة

والأدهى من هذا كله أن أهلها لايعترفون بعيب لها ، فهى لديهم لؤلؤة مبرأة من العيوب ، ولا تفتأ أمها ترمقها فى الجيئة والذهاب بعين الحب والاعجاب ، وما تنفك تحرق حولها البخور دفعاً للسوء وفقأ لعين الحسود

هذه هي زوجه المقبلة أو هى السم الذى وضعته الأقدار في دسم المال وقدمته إليه

وتذكر أمراً فأسرع إلى ورقة اليانصيب وألقى عليها نظرة فاحصة فوجد أن موعد السحب فى شهر اكتوبر وهو ما يزال في يوليو فما من سبيل إلى التسويف إلى أن يتأكد من حظه ، فهى غنيمة من الجنون رفضها ، وهى مصيبة من المستحيل دفعها

وسافر فى صحبة أبيه وعقد على الفتاة بين الزغاريد والأفراح ولبث لديهم يوماً ثم قفل راجعاً إلى القاهرة ، وكانت تنعقد على وجهه كآبة مدلهمة ويتعذب قلبه بألم ممض ، إذ وقر فى نفسه أنه باع نفسه بيع العبيد أو بذلها بذل البغايا ، وأن تلك الفتاة « النشاز » قيدته فى قدميها كـكلب مهين ، فياله من فوز كالخسران وأخذ أهون منه الاعطاء ! وكان أمامه عام كامل على أقل تقدير تجهز فيه الفتاة على حساب والدها وحده لأنهم كانوا يعلمون علم اليقين أنه لو ترك الأمر إلى مقدرته ما فتح بيت الزوجية ولا فى منحدرات الشيخوخة ، فتعزى بهذا العام بعض العزاء ، وكانت تكتئب نفسه كلما انفرط من عقد أيامه واحد ، ولكنه لم ير بدا من المحافظة على المظاهر . فاتصلت الرسائل بينه وبين عمه وكانت فى طلاوتها الظاهرة رسائل زوج مجدود يترقب بفارغ الصبر يومه الموعود

أما الذى كان سعيداً حقاً فهو والده ، وقد أجزل له شقيقه الثرى العطاء ليبدو فى المظهر اللائق ، فذاقت نفسه المحرومة النعيم على كبر وانغمس فى الرفاهية وامتلأ بالغبطة فسار في الأرض مختالا فخوراً يكاد يهتف بالناس أن انظروا وسبحوا واحسدوا

ولم يلبث الرجل أن أخذ على ابنه المواثيق أن يفسح له وأمه مكاناً رحباً فى بيته المنتظر وأن يصون شيخوخته عن ذل الحاجة وكدح السعى فوعده خيراً وهو كظيم ، ولم يكن يجد على والده لأنه لم يضطره إلى شىء ولم يرد له إلا الخير ، ولكن كان إذا منّ عليه أو تنجزه ما وعد حنق عليه ثم حنق

وفي صباح يوم الأحد من شهر اكتوبر كان محمد جالساً إلى مكتبه فى المصلحة ، وأمامه الملفات لا تكاد تظهر منه إلا قمة رأسه ، وعلى كرسي إلى جانبه وضعت صينية عليها طبق الفول الدمس والرغيف والفوطة الحمراء ، وكان إلى جانبه زميل يقرأ جريدة الصباح ويعلق على الحوادث والرجال بما يشاء هواه وتفكيره ، ولم يلبث أن اشتمله صمت طارىء ، ثم أسرع بفتح درجه وأخرج ورقة صغيرة أنعم النظر فيها ملياً ، وتردد ناظره بينها وبين صفحة الجريدة المفتوحة أمامه ثم قام إلى محمد وصاح فى وجهه بانفعال جنونى :

« ربحت ... »

وكأنما حملت هذه الكلمة البسيطة إلى نفس محمد كل ماتنفعل به نفس صاحبه فانتفض قائماً كأنه حر برفأة من قوة جاذبية الأرض وصاح

« حقاً إنه اليوم يعلن اليانصيب ... كم تنسى الهموم ... »

— أرنى رقمك لأتأكد ...

— ها هو ذا ...

— هو بعينه ؟

وانتشر الخبر فى المصلحة وتحدث به كل لسان ، واتسعت له كل عينين ، وانفرجت لوقعه كل شفتين ، وازدحمت الحجرة بجمع غفير من مراجعين وكتبة وسعاة ، هذا يهنىء ، وذاك يطلب «الحلاوة» ، وذلك يشكو الحظ الذى خانه فى رقم أو رقمين ، حتى رئيس القلم خاطب محمداً بلهجة رقيقة لأول مرة ، بل حدثت معجزة فابتسم له وسأله :—

— علامَ عزمت ..؟

— لا أدرى ياسيدى

— أنصحك ألا تستقيل من وظيفتك ... فالعمل أبهج مافي الحياة ، وهو ذخر تدخره للملمات

— أشكرك ياسيدى

قالها ثم سار يترنح كالثمل وقد طلب منه الرئيس أن يكتب طلباً باجازة يوم أو يومين ووعده أن يوافق عليه فلم يسمع له ؛ ونبهه زميل إلى أنه لم يترك ثمن الفول فلم يلتفت إليه وسار يترنح لأن السعادة التى وزعها الله على قلوب البشر هرعت إلى قلبه فى تلك اللحظة كما تهرع حيوية الجسم إلى أحد أعضائه حين اشتداد نشاطه

ومر فى طريقه بمكتب المواساة فساءه ان يجده مغلقاً ، ولكن قيل له إنه يغلق بابه يوم الأحد ، فضاق بذلك وقصد تواً إلى حجرته بل إلى رزمة الظروف بل إلى الظرف الأخير منها وقرأ ورقة اليانصيب مثنى وثلاث حتى اطمأن قلبه فردها إلى المجموعة

وجلس يسترخ ويتأمل بعينين يضيئهما نور الظفر ، أركان حجرته الكئيبة وأثاثها البالى الحزين وعروق سقفها البارزة كأوداج المختنق ثم تكلم بصوت عال قائلاً :—

الآن أهجرك إلى غير رجعة ، فوداعاً أيتها الفيران والصراصير . أتمنى لك حظاً سعيداً وساكناً جديداً أجدى مما كنت وأنفع

إلا أن ذكرى سوداء اغتصبت فجأة سعادته

فتجهم وجهه ، وانقبض قلبه وصاح غاضباً : —

« أواه ! خضراً زوجتي . . ! »

فلا مفر من الحقيقة المرة التي توشك أن تبتلعه بنشوته كما يبتلع القبر الحسناء في ريعان الشباب وميعة الصبا ، فليته اطلع على الغيب من قبل ...

ولكن هيهات أن يدع حزناً في الوجود ينغص عليه صفوه ، ولن يكون غنياً إذا لم ينهل من مورد السعادة كل شهي وينق صفحة وجوده من لوثات الألم والشقاء ، وما هي إلا لحظة حتى ابتدع عقله الحل الموفق فهرع إلى المائدة وكتب إلى عمه الرسالة التالية:

« عمنا المحترم :

أرسل إليكم مع خطابي هذا وثيقة الطلاق من ابنتكم كما هو مقدور ، وإنها لكبيرة ولكني فكرت في أمرى طويلا فلم أر عنها محيداً ، فهو تصميم نهائي لا رجعة فيه وأرجو الله أن يلهمكم الصبر وأن ينزل في قلبكم الرحمة فتغفروا لي »

وطالعه مرات ، وقد بدا له جافا ، ولكنه لم يحاول تخفيف لهجته بل ود لو آتته الشجاعة فجعله أشد قسوة وأنفى للمجاملة ، وأخذ ظرفا دسه فيه وكتب عليه عنوان عمه وخرج لا يلوي على شيء يفتش عن المأذون ، ولم يهدأ له قلب حتى سلمه إلى صندوق البريد ونام ليلته سعيداً مرتاح البال ...

* * *

وفتح عينيه عند استيقاظه فشاهد نور الصباح ينسكب من كوة الحجرة كأنه صدر حسناء تنفرج عنه غدائر شعر حالك السواد ، فقام كأنه يولد من جديد في عالم جديد ، ودلف إلى رزمة الظروف وأخذ آخرها وهو يقول :

— تعالى أيتها الحبيبة التي ستجعل لي من كل حسناء عاشقة وحبيبة

ولكنه وجده فارغاً ... آه لقد تذكر أنه وضع الظرف السعيد فوق الظروف لا تحتها ، فأخذ الفوقاني وفتحه ولكنه وجده أيضاً فارغاً ... فتصلب جسده وارتعشت يداه وخفق قلبه خفقة الذعر والوجل ، ولعبت يداه في الظروف تفتشها فرجع من كل بخيبة مريرة ورعب عظيم ، وفتش الدرج كله وقلبه رأساً على عقب ، وبحث في الثياب والجيوب جميعاً والفراش وأركان الحجرة بل نظر إلى السقف متحيراً ... ودار في الحجرة وهو يهتف كالدرويش في حلقة الذكر : « الله ... الله ... »

هل فرت الورقة فراراً ؟... هل لبست « طاقية الاخفاء » ؟ ...

ولكن خطر له خاطر سريع ... ألا يجوز أن يكون قد وضع خطابه إلى عمه وورقة الطلاق في الظرف المشتمل على ورقة اليانصيب وأرسل الجميع إلى عمه ؟ ...

وأسفاه ! هذا هو الفرض الوحيد الممكن

ولطم خديه ، وشد شعر رأسه وقرع رأسه في عمد السرير ، حتى كاد يشرف على التهلكة ؛ وانتهى به الجنون إلى حالة يموت فيها التدبر ، فارتدى ثيابه سريعاً وخف إلى المحطة ، وكان بينه وبين قيام القطار انتظار نصف ساعة ، فهرع إلى السيارة العمومية التي أسرعت به في طريقها إلى بنها

وكان جزءا ذاهب الحلم ، فثقل عليه طول الوقت ، واشتد به الانتظار ، وطفق يقوم ويقعد وينظر في ساعته ويهوله ما تدل عليه من الزمن فيسأل جاره وجار جاره

حتى أراد الله أن تنتهي الرحلة ، فجري جريا إلى دار عمه

وكان وصوله عقب وصول خطابه بزمن قليل ، فوجد البيت هائجاً مائجاً ، وصوت عمه يدوى فيقتحم حجراته وأفنيته ، ورأى والده المسكين ماثلا بين يدى الرجل الغاضب ، منكس الذقن ، كسير الفؤاد ، يتلقى سبابه ووعيده فى خشوع وذلة ورهبة

وأحدث دخول الشاب دهشة شديدة غير متوقعة ، فساد صمت وخيم سكون ، فنظر إليه أبوه ومد إليه يديه كأنما يقول له : ماذا فعلت ... ماذا فعلت ... أما عمه فقد حملق في وجهه يتعجب من جسارته ومن الباعث الذى حداه إلى الظهور ، ونسى الشاب كل شئ فقال بصوت مبحوح : —

— ورقة اليانصيب ...

فظل الصمت مخيما ثقيلا غليظا ، فعاد الشاب إلى التوسل بصوته الباكي وقد لمح خطابه فى شمال عمه:

— ارحمنى ... أعطنى الورقة ولك ما تشاء ...

فأفاق الرجل من وقع المفاجأة وتنبه إلى الشاب الواقف أمامه الذى أزعج طمأنينته ولوث شرفه ، فتقدم منه خطوات ولطمه على وجهه لطمة شديدة تركت وراءها آثاراً حمراء وزرقاء ؛ وبدا على محمد أنه لم يشعر بوقع اللطمة وإن ترنح قليلاً من شدتها فاستطرد ذاهلاً :

« الورقة ... »

فانفجر عمه مغيظاً محنقاً قائلاً :

« أهكذا يثمر فيك الجميل ياخسيس؟ ... أهكذا ترد الصنع يالئيم ... وا فضيحتاه ... وا خزياه ... ستجعلنى أضحوكة للشامتين والحاسدين ؛ وهذا جزاء من تأخذه رحمة بالأدنياء ... أغرب عن وجهي يا مجرم ، ولا ترنى صورتك بعد الآن ... لا أنت ولا أبوك ... أهذه هي الورقة التى جئت من أجلها؟ خذها إربا إربا ... إذهب ... أغرب عن وجهى »

وجرى الشاب نحوه يحاول منعه من تمزيق الثمرة الرابحة ، فلطمه لطمة أشد من الأولى ، فأمسك أبوه بيده وهو يبكى ، وجذبه خارجاً وهو يصيح به متألماً :

« ماذا فعلت يا محمد ..؟ ماذا فعلت ..؟ »

وكان اليأس قد بلغ به منتهاه فأفلت من يد أبيه وجرى شطر الطريق المؤدى إلى النيل ، فارتعب أبوه وجرى خلفه وهو يناديه ، ولكن ضاع نداؤه فى الهواء ، لأن محمداً لم يكن يسمع شيئاً ، فلم يلتفت إلى والده ولا إلى ندائه ، وماله هو ونداء أبيه ..؟ بل ماله ونداء الدنيا جميعاً وهو لم يعد من اهلها ...

نجيب محفوظ

(١) خالتى وقصص أخرى

(٢) وكيل البريد وقصص أخرى

مجموعتان من أقاصيص رابندرانات طاغور

ترجمة عبد اللطيف النشار

(٣) جنة فرعون وقصائد أخرى

(٤) نار موسى وقصائد أخرى

ديوانان من شعر عبد اللطيف النشار

(٥) الاسكندر

رواية تاريخية عن حياة الفاتح الكبير

ترجمة عبد اللطيف النشار

ثمن هذه الكتب الخمسة عشرة قروش بما في ذلك أجرة البريد وتطلب بالبريد من صاحبها بعنوانه :

١٨ شارع الإبعادية بمحرم بك بالإسكندرية